اتصال المسلمين بالنوبة

تدفقت الجيوش الاسلامية في عهد سيدنا عمر بن الخطاب عبر برزخ السويس الى مصر بقيادة عمرو بن العاص وتغلبت على مقاومة الروم وتقبلهم المصريون بالرضا حيث خلصوهم من حكام بيزنطية . ولكل جيش دخل الوجه البحري في مصر فاتحا لا بد وان تمتد فتوحاته الى الصعيد حتى اسوان وقد فعل المسلمون ذلك جنوبي اسوان تمتد حيث ممالك النوبة وكانت على اتصالات تجارية وثقافية ودينية مع مصر ، ولا بد للجيوش الاسلامية وقد وقفت عند اسوان ان تؤمن هذا الطريق التجاري وان تؤمن حدودها الجنوبية . فدخلت فرقة إسلامية بقيادة عقبة بن نافع في سنة ٦٤١ م ووقع صدام بينه وبين النوبة الشمالية ولم يتوغل المسلمون كثيرا ، والظاهر ان الطرفين اتفقا على هدنة . ولكن ما ان غادر عمرو بن العاص مصر وخلفه عبد الله بن ابي السرح حتى نقض النوبيون العهد وكان لزاما على الوالي الجديد ان يجرد لهم جيشا يتوغل هذه المرة في مملكة المقرة حتى عاصمتها دنقلا (دنقلا العجوز) في سنة ٦٥٢ م واحكم الحصار حولها ورماها بالمنجنيق حتى طلب الملك قليدوروث الصلح .

عهد عبدالله بن ابي السرح

وأملى المسلمون شروطهم على الملك . فقد عاهدهم القائد الاسلامي على الامان لا يحاربهم المسلمون وان يدخل النوبة بلاد المسلمين مجتازين غير مقيمين فيها . وعلى النوبة حفظ من نزل بلادهم من المسلمين او المعاهدين حتى يخرج منها . وعليهم رد كل آبق دخل بلادهم من عبيد المسلمين وعليهم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بدنقلة وكنسه وإسراجه وتكرمته وألا يمنعوا عنه مصليا وان يدفعوا في كل سنة ثلثمائة وستين رأسا من اوسط رقيقهم غير المعيب يكون فيه ذكران وإناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم . وحينما شكا الملك من فقر البلاد وحاجتهم لمؤن من مصر تبرع المسلمون بإمدادهم سنويا بكميات من الحبوب والملابس .

وهذا الصلح ورد ذكره في المصادر العربية باسم البقط ولعله يعني Paetum الرومية ومعناه الاتفاق . واكتفى المسلمون بهذا العهد الذي امن حدودهم الجنوبية واعطى حرية المرور داخل اراضي النوبة للتجار المسلمين وإقامة شعائر دينهم في قلب عاصمة النوبة . وليسوا بحاجة لاحتلالها وضمها للاراضي الاسلامية او التوغل جنوبا حيث تبدي لهم فقرها وقفرها وهم بصدد تدبير حملات لارض غنية في شمال إفريقيا وتثبيت اقدامهم فيما تم فتحه من بلدان . واستمرت علاقة الدولة الاسلامية بمملكة مقرة المسيحية نحو ستة قرون على اساس هذه المعاهدة .

العلاقات مع البجة

تذكر لنا المصادر لاول مرة عن غارة قام بها البجة وهم سكان الصحراء ما بين النيل والبحر الاحمر على صعيد مصر في سنة ٧٢٥ م ، والظاهر ان

المسلمين ردوا هذا الهجوم وصالحهم ابن (الحبحاب) بعهد يدفع البجة بموجبه ثلاثمائة من الابل الصغيرة وان يجتازوا الريف تجارا غير مقيمين وألا يقتلوا مسلما او ذميا وألا يؤوا عبيد المسلمين ويظل وكيلهم في الريف رهينة في يد المسلمين . وهذا العهد ضمن للمسلمين تأمين حدودهم على الصحراء وفي الوقت نفسه ترك العلاقات التجارية حرة كما كانت من قبل . وظلت العلاقات ودية حتى اذا ما كنا في عهد المأمون العباسي جدد البجة غاراتهم على اسوان وعند سماع الخليفة بالخبر امر بتجريد حملة عليهم وعقد لواءها لعبد الله بن الجهم سنة ٨٤١ م ونتيجة لذلك املى عليهم عهدا جديدا جعل بموجبه بلاد البجة من حد اسوان الى ما بين دهلك (مصوع) وباضع (جزيرة الريح) ملكا للخليفة وان يكون كنون بن عبد العزيز رئيسهم هو واهل بلده عبيدا لامير المؤمنين . وعلى ملك البجة ان يؤدي خراجا سنويا مقداره مائة من الابل او ٣٠٠ دينار وان يحترم البجة الاسلام وألا يعينوا احدا على المسلمين وألا يقتلوا مسلما او ذميا حرا او عبدا في ارض البجة او في مصر او النوبة وعليهم تأمين حياة المسلمين المجتازين لبلادهم للتجارة او الاقامة . واذا ما دخل البجة صعيد مصر مجتازين او تجارا لا يظهرون سلاحا ولا يدخلون المدائن والقرى وألا يهدموا المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وعلى كنون ملكهم ان يدخل عمال امير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من اسلم من البجة .

الاسلام والعروبة في ارض البجة

يتضح من هذا العهد ان الاسلام شق طريقه قبل هذا العهد لان وجود المساجد والمسلمين الذين يدخل عمال المسلمين بلاد البجة لقبض صدقات من اسلم من البجة دلائل واضحة على انتشار الاسلام سواء كانوا من العرب الذين اقاموا هناك او من البجة الذين اعتنقوا الدين الاسلامي نتيجة

اختلاطهم بالعرب . من النتف التي تذكرها المصادر العربية نعلم عن دخول جماعات من قبائل بلى وجهينة لغرض التجارة او جذبتهم معادن الذهب او المراعي عقب الفتح الاسلامي لمصر ، وبديهي ان يدخل بعض البجة دين الاسلام نتيجة اختلاطهم بهم . وعبر فريق من هوازن البحر الاحمر عرفوا فيما بعد بالحلانقة واقاموا في بلاد البجة ثم رحلوا لاقليم التاقة (كسلا) . وعندما انهارت الخلافة الاموية واعمل العباسيون السيف في بني امية هربت جماعة منهم الى بلاد النوبة والبجة واستقر بعضهم في ميناء باضع ودلت الاحداث الاثرية على وجود شواهد قبور اسلامية وعلى مسجد في سنكات ـ يستنتج انها طريق الفارين من الامويين . وبعض الروايات العربية تقول ببقاء بعض من كانوا في حملة ابن الجهم في ارض البجة وربما نزحت بعض القبائل من صعيد مصر وتوغلت في الصحراء الشرقية تحت ضغط قبائل عربية اخرى . فبلاد البجة اذا اصبحت مجالا حيويا لقبائل عربية مسلمة بعضها جذب ببريق معدن الذهب وبعضها تحت ضغط قبائل اخرى وبعضها تخلف بعد نجاح حملات تأديبية وبعضها عبر البحر الاحمر واستقر على الساحل الغربي وبعضها تبعت موارد المياه والعشب لانعامها واغنامها وبعضها لجأ الى الصحراء متوغلا فيها خوفا من سيوف العباسيين .

رحلة ابن ملك النوبة لبغداد

اصبح دفع ثلاثمائة وستين من الرقيق سنويا للمسلمين في مصر عبئا ثقيلا على النوبة ، فهم يؤدونه على مضض خوفا من سطوة الدولة الاسلامية لانه استنزاف سنوي لايديهم العاملة وربما يحصلون عليه ممن جاورهم بعد شن الغارات عليهم واذا تعذر ذلك يؤدونه من ابنائهم حسب رواية البلاذري . وولاة المسلمين من جانبهم لا يتهاونون في هذا البقط فاذا ما امتنع النوبة عن ادائه شنوا عليهم الحملات لارغامهم على دفعه او امتنعوا

عن دفع ما يقابله من حبوب وملابس . وفي عهد الخليفة المعتصم العباسي كان ملك النوبة زكريا بن يوحنس وابنه جورج . فحرض الابن الشاب والده على عصيان المسلمين وألا يقبل مذلة او مهانة بعد اليوم بأدائه البقط ونتيجة لفورة الشباب وبدافع العزة القومية امتنع النوبيون عن اداء البقط مدة اربعة عشر عاما تعرضوا خلالها لضغط متزايد من قبل ولاة المسلمين في الصعيد الاعلى لمصر . ولكن زكريا رأى ألا يبدأ بحرب المسلمين إلا بعد استطلاع احوالهم ومعرفة مدى قوتهم . وتنفيذا لهذا رأى ان يبعث بابنه جورج وهو زعيم المقاومة لنفوذ المسلمين الى بلاط الخليفة ببغداد ليشاهد بنفسه قوة المسلمين ويقيس عليها استعداد النوبة لمحاربتهم . وهناك في عاصمة العباسيين بهرته حضارة المسلمين وقوتهم واقتنع بأن لا طاقة لهم بمقاومة الدولة العباسية والمعتصم من جانبه أكرم وفادة ابن ملك النوبة واحسن معاملته واتفق معه على تأدية بقط سنة واحدة كل ثلاث سنوات ، وان يستمر المسلمون في تأدية ما كانوا يرسلونه للنوبةوأصدر الخليفة اوامره بالافراج عن سجناء النوبة نتيجة لطلب جورج غير انه لم يجبه على طلب إزالة الحامية العسكرية التي اقامها المسلمون بمدينة القصر .

حملة القمي على ارض البجة

تركنا البجة والخليفة المأمون العباسي عن طريق قائده عبد الله ابن الجهم يملي عليهم شروطا قاسية جعلتهم حسب منطوق العهد عبيدا لامير المؤمنين ، ولكن من يعرف طباعهم يتيقن انهم لا بد من ان يثوروا على هذا الظلم والعهد الغير متكافيء فاغاروا في عهد المتوكل العباسي على مناجم الذهب بالعلاقي فندب المتوكل لحربهم محمد بن عبد الله القمي سنة ٨٥٤ م وأمر واليه على مصر ان يمده بالرجال وقاد القمي جيشا عرمرما يبلغ تعداده عشرين الفا من نظامي ومتطوعين ، وعند مروره على وادي العلاقي تبعه

من ربيعة ومضر واليمن نحو ثلاثة آلاف ، وحملت المراكب المؤن الى ميناء عيذاب . وكانت خطة البجة هي عدم الالتقاء في معركة في اول الامر بل المطاولة والمناوشة البسيطة وامتداد خط مواصلات المسلمين حتى يوغلوا في الصحراء وتنفذ اقواتهم وبعدها يلاقونهم على هذه الحالة من الجوع ونقص الكفاءة الحربية ولكن القمي قابل هذه الخطة بما افسدها اذ ظلت امداداته بالمراكب تتوالى الى ميناء عيذاب في فترات وأخذ زمام المبادءة في القتال حتى تمكن من الغلبة عليهم ، وعندها طلب ملكهم علي بابا الصلح بأن يدفع الخراج وألا يمنع المسلمين من العمل في المعدن . وافق القمي على الشروط وزادها بأن يطأ علي بابا بساط الخليفة في سر من رأى عاصمة العباسيين آنذاك وهناك اكرم الخليفة وفادته .

تجمعات العرب في المناجم

نقل علي بابا الى قومه ما شاهده من عظمة وقوة المسلمين في عاصمتهم وادركوا ان لا قبل لهم بمعاداتهم وتدفق مزيد من العرب على معادن الذهب واكتشفت مواطن اخرى في المنطقة وترك لهم امر استغلال المناجم لان البجة على ما يبدو لم تكن لهم خبرة بأمرها ، واكتفوا بمساكنة ومجاورة ومصاهرة العرب وربما زاد عدد من اعتنق الاسلام منهم ، وبسطت الدولة الاسلامية نفوذها على المنطقة ومما زاد في هجرة أعراب البادية من مصر نحو اراضي البجة سياسة الخليفة المعتصم العباسي المتجهة نحو تجنيد الاتراك في جيشه والاستغناء عن خدمات العرب ونتيجة لذلك امر والي مصر بقطع العطاء عنهم ، وثار العرب لهذا القرار وأسر الوالي زعماء الثورة وربما اعقبت هذه الحوادث موجة من الاضطهاد لهم مما ادى الى هجرة بعضهم جنوبا في الصحراء حيث استقرت قبائل قبلهم ، وهذه السياسة الجديدة نحو العرب قادت الى تعيين حكام وولاة مصر من الاتراك دون العرب وابتدع ابن

المدبر والي الخراج في مصر ضرائب مختلفة زادت في حنق العرب نحو الاتراك اظهروه في ثورات اخضعها الاتراك بعنف وامتلأت السجون من الزعماء مع فرض الغرامات واتجهوا منسابين نحو الجنوب والغرب مبتعدين عن هذا الجو العدائي وهم ابناء الصحراء وهم في الاماكن التي هاجروا اليها اهل وعشيرة استقروا هناك .

حملات العمري

وعندما تسلم زمام السلطة في مصر احمد بن طولون واعلن قيام الدولة الطولونية سنة ٨٦٨ م جهز حملة حربية الى بلاد النوبة والبجة بقيادة ابي عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمري واشترك كثير من العرب في هذه الحملة خاصة ربيعة وجهينة ، ولعل الهدف الاكبر لهذه الحملة هو الاستيلاء على مناجم الذهب واكتشاف غيرها نتيجة الروايات التي بولغ فيها زيادة على تأمين حدود الدولة من غارات النوبة والبجة ، وسار العمري بجيشه سنة ٨٦٨ م حتى وصل الى اقليم شنقير (يظن انها منطقة الرباطاب والمناصير) واهتدى الى مواقع جديدة للتبر واقام قواعد على النهر للحصول على المياه لحياة الاستقرار وتغلب على قوات جورج الاول ملك النوبة . ثم تحرك شمالا عندما سمع بخروج بعض قبائل الشام عليه بعد ان اقاموا في منطقة إدندان باتفاق مع النوبيين وهزمته فانسحب شمالا واتسعت منطقة نفوذه حتى منطقة عيذاب شرقا وحدودها الشمالية اسوان . وخشي ابن طولون على نفسه من اتساع نفوذ العمري وارسل جيشا لمحاربته فانهزمت جيوش ابن طولون امام العمري وتحرك شمالا حتى إدفر ، إلا انه رأى الرجوع الى منطقة نفوذه في المناجم ، وانشقت عليه قبيلة ربيعة وحاربته غير انه هزمها وكانت نهايته على يد اغتالته من قبيلة مضر . وبعد موت العمري كان هناك خلق كثير من ربيعة وجهينة خاصة حول اسوان وتنازعوا على امتلاك

معادن الذهب بالعلاقي غير ان الغلبة كانت لفريق من ربيعة استمال البجة وتزوجوا بنات رؤسائهم .

الاسلام والعروبة بين البجة والنوبة

فالعمري وهو شخصية دينية فذة نشر بغزواته هذه في ارض البجة والنوبة الاسلام والثقافة العربية وزاد من عدد العرب الذين استقروا في المنطقتين وبالتالي في الفرص التي اتاحها للاختلاط بين سكان البلاد الاصليين والعرب الوافدين ، وحدث ما يمكن ان يحدث في مثل هذه الظروف عند التقاء حضارة ناشئة ذات فعالية بحضارة متدهورة اذ لا بد من غلبة الاولى على الثانية . فالمسعودي حين زار مصر حوالي سنة ٩٤٠ م يحدثنا عن اختلاط عرب ربيعة بالبجة في منطقة المناجم وباتحاد الفريقين تغلبوا على من ناوأهم سواء كانوا من النوبة او غيرهم من السكان ، ويذكر ان اميرهم ابا مروان بشر بن إسحق بن ربيعة يتحكم في جيش قوامه ثلاثة آلاف فارس من ربيعة ومن حالفهم من العرب وثلاثين ألفا من الحدارية (ولعل اصلهم من حضرموت) على الابل ويتضح لنا من هذا الوصف ان دولة عربية صغيرة قامت في تلك البلاد . ويذكر لنا المسعودي وصول الاسلام الى جزيرة سواكن حيث تقيم جماعة اعتنقت الاسلام تعرف بالخاسة . وفي بلاد النوبة السفلى الموالية لاسوان يحدثنا المسعودي عن جماعات من قبائل قحطان وربيعة وقريش تقدموا من أسوان جنوبا حيث اشتروا اراضي من النوبة ووجدوا مقاومة من ملوك تلك الجهات بحجة ان النوبيين عبيد لملوكهم ولا يحق لهم بيع الاراضي ولكن العرب عند التقاضي لدى حاكم اسوان لقنوا النوبيين حجة انهم ليسوا بعبيد ولهم حق التصرف في املاكهم وقضى الحاكم بصلاحية البيع ومع ذلك فملاك هذه الاراضي من المسلمين ظلوا يدفعون خراجا عنها لملك النوبة المسيحي كل

ذلك حدث في النوبة السفلى اما النوبة العليا في جهات دنقلا شمالا الى الشلال الثاني فالعرب يسمح لهم بالتجارة لا بالاقامة حسب نصوص عهد ابن ابي السرح .

تجدد غارات النوبة

في اواخر عهد الاخشيديين عندما بدأت الدولة الفاطمية في شمال إفريقيا ترنو بأبصارها نحو مصر وحين شعر النوبيون باضطراب الاحوال في مصر وعدم استقرارها نشطوا في غاراتهم فبدأوا بالواحة الخارجة سنة ٩٥١ م واعقبوها بأخرى على اسوان سنة ٩٥٦ م وكان على الدولة الاخشيدية ان ترد هذا العدوان فبعث انوجور بن الاخشيد محمد بن عبد الله الخازن بجيش سنة ٩٥٧ م ولاقى النوبيين في معركة هزمهم فيها وتقدم نحو الجنوب حتى ابريم وسبى وغنم ورجع الى مصر . وفي عهد كافور غزى النوبيون صعيد مصر متقدمين شمالا حتى أدفو ونتيجة ذلك كله هو الامتناع عن دفع البقط .

اول اتصال بالفاطميين

وعندما دخلت جيوش الفاطميين بقيادة جوهر الصقلي مصر سنة ٩٦٩ م وعلم جوهر بغارات النوبيين داخل الاراضي المصرية في اواخر عهد الاخشيديين وامتناعهم عن دفع البقط بعث باحمد بن سليم الاسواني لملك النوبة جورج يطالبه بدفع ما عليه من بقط للدولة الاسلامية في مصر وعرف جورج قوة الفاطميين وخضع للامر وادى ما عليه . وهناك رواية تقول بان جوهرا دعا الملك جورج لاعتناق الاسلام وهذه الرواية محتملة نسبة لما عرف عن الفاطميين من سياسة الدعاية والتوسع . وبقيام دولة اسلامية

جديدة في مصر اشتد نفوذ العرب في بلاد النوبة السفلى حيث يروي ابن سليم هذا أن المسلمين هناك كانوا في حالة من الاستقرار والاستقلال في المنطقة وكانت لهم أملاك يستغلونها لصالحهم ، وروى أن كثيرا من النوبيين اعتنقوا الاسلام مع تمسكهم بلغاتهم وجهلهم باللغة العربية ويعتقد أن العرب أنفسهم تعلموا لغة النوبة . ويزيد ابن سليم أن المسلمين توغلوا داخل الاراضي السودانية حتى اقليم مملكة علوة وعاصمتها سوبا لغرض التجارة حتى أنه أصبح لهم رباط خاص به جماعة من المسلمين . وكان عهد الفاطميين بأكله عهد ود ومصالحة مع النوبة .

كنز الدولة

ذكرنا قبلا ان عرب ربيعة أنشأوا دويلة اسلامية امتد نفوذها من اسوان جنوبا في بلاد النوبة وشرقها في الصحراء الى البحر الاحمر وأن مؤسسها هو بشر بن اسحق . ولكن النزاع بين بطون ربيعة في العلاقي وعيذاب أدى الى قتل مؤسس الامارة وخلفه ابن عمه محمد بن علي المعروف باسم ابن يزيد اسحق وارتبط العرب بالنوبيين حيث تزوجوا بنات الزعماء من النوبة وتكونت بذلك طبقة حاكمة في النوبة السفلى أزالت نفوذ الملك المسيحي في تلك المنطقة ، ويبدو ان كثيرا من النوبيين تحولوا للاسلام والدولة الفاطمية سرها امتداد الاسلام لبلاد النوبة واعترفت بالامارة بل استعان الخليفة الحاكم بأمر الله بأبي المكارم هبة الله أمير ربيعة في مطاردة الثائر ابي ركوة وهو من بني امية يحل ركوة لوضوئه . وكان في القيروان ثم مر على بني قرة برقة ودعاهم للثورة على الحاكم فبايعوه وهزموا والي الحاكم هناك وانضمت اليه جماعة أخرى من كتامة وتوالت انتصاراته على جيوش الفاطميين حتى وصل أهرامات الجيزة ولكنه انهزم في الفيوم حيث تخلت عنه بنو قرة وفر لاجئا لبلاد النوبة ونجح ابو المكارم في القبض عليه

سنة ١٠٠٦ م ولذا أضفى عليه الحاكم لقب كنز الدولة تكريما ومكافأة له وصار كل زعيم منهم يحمل هذا اللقب بل عرفت القبيلة ببني الكنز وهم الكنوز المعروفون .

النوبيون في جيش مصر

والسياسة التي اختطها الخليفة المعتصم العباسي في أن يجند في جيش الدولة العباسية عناصر غير عربية كالأتراك جعلت احمد بن طولون يستخدم النوبيين في جيشه ، ويروي أنهم كانوا ٤٠ الفا في عهده أسكنهم في حي يعرف باسمهم . ويروي المقريزي أنه حصل عليهم بطريق الشراء ويبدو أنهم لم يكونوا كلهم من سكان بلاد النوبة بل يحتمل أن جلب بعضهم من الاراضي التي تقع في اواسط السودان كرقيق بواسطة تجار الرقيق . واستمرت دولة الاخشيديين في استخدامهم وخاصة في عهد كافور ودولة الفاطميين زادت في عددهم بتشجيع من ام المستنصر وهي سودانية الاصل وحسب بعض الروايات انهم بلغوا في ذلك العهد ٥٠ الفا وكانوا وهم بهذه القوة عنصرا هاما في اخماد الثورات وفي التكتلات الحزبية داخل الهيئة الحاكمة . ولا شك ان بعض النوبيين نزحوا لمصر للعمل هناك بل برز من ابنائهم الذين ولدوا في مصر يزيد ابن ابي حبيب حيث تعمق في العلوم الاسلامية واتصل بعدد من صحابة الرسول الذين شهدوا فتح مصر وتابعيهم وكان والده من سكى النوبة في الحملة الاسلامية الثانية على تلك البلاد ، وابو الفيض ثوبان بن ابراهيم الملقب بذي النون المصري اصله نوبي ودرس الموطأ عن اصحاب مالك بن انس عندما خرج حاجاً للحجاز وعرف بعد رجوعه لمصر بميله لحياة التصوف وساح في البلاد الاسلامية حتى توفي بالجيزة وحمل جثمانه لمصر ودفن بها . ولا بد ان بعض من استخدم في مصر من النوبيين رجع لبلاده وحمل اليهم الثقافة الاسلامية واثر على بعضهم باعتناق الاسلام .

علاقة الدولة الايوبية بالسودانيين وبني كنز

كانت علاقة صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الايوبية في مصر سيئة مع الجند السودانيين لانهم حاولوا اقصاءه من الوزارة في عهد الخليفة العاضد الفاطمي وفشلت محاولتهم لانه قاومهم بحملة قادها شجاع الدين البعلبكي سنة ١١٧٢ م ودارت المعارك بين الفريقين في شوارع القاهرة وانهزم الجند السوداني الى الصعيد . اما كنز الدولة فوالى صلاح الدين في حربه مع الجند السودانيين الا ان صلاح الدين كان يتهم بني كنز بتشيعهم للعلوية ومعنى هذا انهم روحيا مع الفاطميين . وحين ارسل اخاه توران شاه بجيش لغزو بلاد النوبة كان من ضمن اهدافه القضاء على نفوذ بني كنز وتوغل توران شاه في النوبة حتى ابريم ، ولكن فقر البلاد جعله يكتفي بهذا القدر من التوغل في البلاد واكتفى صلاح الدين بإقطاع ذلك الاقليم لاحد امرائه وفي هذا دلالة واضحة بأنه لا يود لكنز الدولة السيطرة عليه . فثار كنز الدولة وهجم بجيشه على والي صلاح الدين وقتله ، وكانت هناك حركة في مصر ترمي لاعادة الدولة الفاطمية ويعتقد ان كنز الدولة كان على اتصال بزعماء الحركة . وتمكن صلاح الدين من القضاء على تلك الحركة في مصر وارسل اخاه الملك العادل بجيش الى أسوان فهزم كنز الدولة وقتله ونتيجة لذلك رحل بنو كنز عن اسوان ونقلوا مركز امارتهم الى الجنوب في ارض النوبة وتم اندماجهم مع سكانها . وتذمر جنود النوبة حين استبدلهم صلاح الدين بعناصر كردية وتركية وديلمية وحاول النوبيون استعادة ملك الفاطميين وبالتالي مكانتهم في جيشهم .

عيذاب

كانت عيذاب تعرف بميناء الذهب وهي تقع على ساحل البحر الأحمر

شمالي سواكن بكثير وعندما احتل الصليبيون ارض فلسطين لم يعد طريق سيناء للحجيج المصري والمغربي آمنا فتحولوا الى ميناء عيذاب منذ القرن الثاني عشر الميلادي وعندما نشطت حركة الحجيج بها وتردد عليها المسلمون في ذهابهم وايابهم من الاراضي المقدسة في الحجاز بدأت المراكب التي تحمل بضائع اليمن والهند ترسو بها وبالتالي عمرت منطقتها وزادت حركة القوافل بينها وبين قوص على النيل في مصر . وكان هذا العمران في اواخر عهد الفاطميين الى اوائل دولة المماليك الثانية وكانت دولة المماليك تبعث لها بوالي من قبلها مع الوالي الحدربي وكذلك انشئت محكمة مملوكية يشرف عليها قاض . وتنبه الصليبيون اليها عندما رسخت اقدامهم في ارض فلسطين وعلموا بتحويل التجارة والحجيج اليها وما كان لهم وهم يقاتلون المسلمين بدوافع دينية الا ان يحاولوا القضاء على المركز الممتاز الذي احتلته عيذاب في حياة المسلمين الدينية والتجارية وخاصة اذا علمنا ان الدافع الرئيسي لاثارة الحملات الصليبية على فلسطين كان اعتقادهم بأن السلاجقة جعلوا حجيج المسيحيين الغربيين الى اماكنهم المقدسة فيها صعب المنال . وقاد ارناط حملة في البحر الأحمر الى عيذاب سنة ١١٨٢ م وكان هدفه ارض الحجاز ولكنه فشل غير انه تمكن من تحطيم ١٦ سفينة وجدها في ميناء عيذاب .

سواكن

وهذه المحاولة الصليبية التي كانت تهدف الى احتلال الاراضي المقدسة الاسلامية في الحجاز ونجاحها في تحطيم ما وجدته من سفن في ميناء عيذاب جعلت حكام المسلمين في مصر يوجهون اهتمامهم لسلامة البحر الأحمر من خطر الصليبيين . فزيادة على تأمين ميناء عيذاب اهتموا بميناء سواكن وهو مخرج تجارة ممالك النوبة المسيحية في السودان . والظاهر

ان نشاط مصر التجاري لم يقتصر على عيذاب وحدها . ولكن تعداه مينائي سواكن وجنوباً الى موقع مصوع وتعرض حاكم سواكن وحاكم جزر دهلك قبالة مصوع لأموال من توفي في بلادهم من التجار المصريين وأهمل صاحب سواكن احتجاج السلطان المملوكي بيبرس وما كان له الا ان يبعث بحملة تأديبية لسواكن في سنة ١٢٦٥م وكانت النتيجة ان فر صاحب سواكن واحتلتها الجيوش المملوكية واستقرت حامية دائمة هناك وبهذا اصبح هذا المنفذ البحري لأقاليم النوبة المسيحية على النيل تحت سيطرة الدولة الاسلامية .

رد الفعل لدى النوبة

يتضح لنا من ذلك ان الدولة الاسلامية في مصر قد سدت على مملكة النوبة المسيحية في دنقلا المنافذ الى العالم الخارجي وخاصة للأراضي المقدسة في فلسطين والتجارة مع الخارج . فميناء السودان الوحيد تحت سيطرة المسلمين وقامت دولة اسلامية صغيرة في النوبة السفلى تحت حكم بني كنز وانتشر العرب في الصحراء وعرف ان نوبة مسيحيي النوبة كانوا يترددون على الاراضي المقدسة في فلسطين وسرهم احتلال مسيحيي الغرب لها وساءهم حين علموا بانحسار ظل الصليبيين عن فلسطين في عهد صلاح الدين الايوبي وفي عهد المماليك بعده وربما تأثروا بموجة اضطهاد قيل انها حدثت للاقباط اخوانهم في الدين على يد السلطان بيبرس حيث اتهمهم بحرق بعض احياء القاهرة سنة ١٢٦٤ م ولو انه لم تظهر المصادر المعروفة لدينا اية علاقات بين الصليبيين في فلسطين ودولة النوبة المسيحية في السودان الا انه يظن ان النوبيين كانوا على علم بالنزاع بين المسلمين وبينهم في فلسطين وخاصة تلك المحاولة التي قام بها ارناط في البحر الاحمر . فهم متعاونون مع الصليبيين في الناحية الدينية وقد احكم المسلمون الحصار عليهم وعزلوهم عن العالم الخارجي وها هم يسمعون عن اضطهاد لحق باخوانهم

في الدين في مصر . تجمعت كل هذه الاسباب لتقود داود متملك المقرة في عاصمته دنقلا العجوز لأن يحاول فك هذا الحصار الذي فرض عليه وليمنع تعديلات اخرى من جانب المسلمين على ارضه .

النضال بين النوبة والمماليك

ففي سنة ١٢٧٢ م اغار النوبيون على ثغر عيذاب ونهبوا متاجرها وقتلوا عددا من اهلها بما فيهم القاضي والوالي ثم على مدينة اسوان فخربوا السواقي وأسروا عدداً من السكان وعندما وصلوا بهم لدنقلة سخروهم في بناء كنيسة . وبدأت بعد ذلك سلسلة متصلة الحلقات من النزاع وإرسال الحملات بين النوبة والمماليك حيث ارسل السلطان بيبرس في سنة ١٢٧٣ م حملة يقودها واليه على قوص وتقدمت حتى وصلت دنقلا لكن داود تقهقر جنوباً حتى لا تناله يد المماليك فعادت الحملة بعدد من الاسرى . ورأى بيبرس ان يستغل النزاع في البيت المالك النوبي حين قدم الى القاهـــرة شكندة متظلماً من خاله داود الملك لأنه ادعى انه اغتصب الملك منه . فجهز بيبرس جيشا سنة ١٢٧٦ وسار معهم شكندة وتقوى الجيش بعربان الوجه القبلي وبدأت المقاومة لهذا الجيش عند الدر فتمكن المماليك من اخضاع هذه المقاومة الاولى وتابع الجيش سيره واخترق جنادل الشلال الثانـي وسلم الارض التي اخضعها الجيش الى شكندة ليحكمهـا وعندما دنت الحملة من دنقلا خرج لها داود وعشيرته فيما جمعوه من قوة غير ان النتيجة كانت هزيمتهم وفرار داود وجاء شكندة الى دنقلا وتم تتويجه ملكاً للنوبة بنفوذ وسلطة الجيش المملوكي وكانت هذه بداية الحماية المملوكية على مملكة مقرة اذ لم يحاول المماليك ضم البلاد الى املاكهم بل اكتفوا بأن يكون الجالس على العرش من اختيارهم على ان يرتبط معهم بعهد يقطعه علـى نفسه ومعه شعبه .

شروط المماليك

ولأهمية هذه الشروط والعهود التي بمقتضاها اجلس المماليك شكندة على عرش دنقله نورد اهم ما تضمنته : اصبح شكندة مرتبطا بيمين الطاعة والولاء لسلطان المماليك ونائبا عنه في حكم مملكة المقرة ويرسل نصف ما تجمعه من المملكة للسلطان ومعه بعض التحف كهدايا ، وهناك ضريبة يدفعها كل نوبي عاقل بالغ تبلغ ديناراً كجزية طالما بقوا على النصرانية وان تسلم كل ممتلكات داود ومن تبعه للسلطان وان يمنع شكندة الاعراب من الاستقرار في بلاد النوبة وان يطلع شكندة السلطان على كل الاحوال ، وايدت هذه الشروط بيمين حلفه شكندة . وعندما اكملت الحملة المملوكية مهمتها على هذا النحو اخذت معها عدداً من امراء النوبة كضمان لوفاء النوبيين بالشروط . ويروى ان الحملة حملت معها عدداً من اسرى رقيق النوبة بلغ الآلاف وبيع بأثمان بخسة في اسواق النخاسة في القاهرة . فاذا صحت هذه الرواية فان بلاد النوبة تعرضت لخراب اقتصادي حين حرمت من تلك الايدي العاملة في الانتاج الزراعي فزادتها فقراً على فقرها . والظاهر ان اثر هذه الحملة المملوكية على مملكة مقرة المسيحية في دنقلا كان لها صداها في الجزء الشمالي من مملكة علوة والذي يعرف بالابواب في منطقة شندي او شمالها ، فقد لجأ داود على ما يبدو الى هذه المملكة لأنها مسيحية ولكن ملك الابواب ابى ان يدخل في عراك مع دولة المماليك بسبب داود فقبض عليه وأرسله مقيداً الى القاهرة حيث اعتقل الى ان مات .

تحكيم قلاوون في النزاع بين دنقلة وعلوة

وبالرغم من العهود والمواثيق التي قطعها شكندة على نفسه بالعمل تحت ظل راية المماليك ، فان السلطان بيبرس بعث ببعض الاسماعيلية الى

دنقلا لمراقبته حتى لا تحدثه نفسه بالتمرد ، ومـــات شكندة قتيـلا في سنة ١٢٧٧ م ربما بيد بعض المتحمسين لدينهم وقوميتهم ، واعتلى العرش بعده امير من البيت المالك يدعى برك الا ان السلطان قلاوون الذي خلف بيبرس في القاهرة لم يطمئن اليه فارسل حملة الى بلاد النوبة انتهت بقتل برك وتنصيب سمامون ملكا بنفس الشروط السابقة . وتذكر لنا مخطوطة تاريخ قلاوون ان ادور ملك الابواب (الجزء الشمالي من علوة) ارسل سفراء له حاملين هدايا لقلاوون يشكون فيه من سوء معاملة سمامون ملك دنقلا ويحكمون في النزاع ويظهرون الولاء والطاعة للسلطان المملوكي . وسمامون من جانبه حينما علم بسفارة ملك الابواب بعث بسفارته وهداياه ايضا للدفاع عن وجهة نظره ، ورأى قلاوون حين اجتمع بالسفارتين ان يبعث بمندوبه للاقليمين للتحقيق فأرسل مبعوثا لملك الابـواب والاجزاء الاخرى الصغيرة من مملكة علوة مع سفراء الابواب عن طريق عيذاب خشية التعرض لهم من قبل ملك دنقلا وبعث برسول آخر لملك دنقلا . ونتيجة لهذا التحقيق اقتنع قلاوون بان سمامون هو الجانب الظالم . ومما زاد الطين بلة ان مبعوث السلطان الى الابواب قبض عليه جواسيس سمامون عند رجوعه واراد قتله الا ان حاشيته ورعاياه منعوه من ذلك خوفا مـن ان يخرب السلطان ديارهم ولا شك ان المبعوث حين رجع سالما لمصر ابلـغ قلاوون امر هذا الحادث .

حملة لتأديب سمامون

اظهر سمامون عدم اخلاصه وولائه ، ويبدو انه لم يرسل الجزية والبقط واصبح لزاما على السلطان ان يبعث بحملة لتأديبه . وغادرت الحملة القاهرة في عام ١٢٨٧ على ان يشترك فيها والي قوص الامير عز الدين أيدمر واخذ معه من العربان اولاد ابي بكر واولاد عمر واولاد شريف واولاد شيبان

واولاد الكنز وبنو هلال ، وسار فريق بقيادة الامير علم الدين سنجر الحياط بالبر الغربي وقاد أيدمر فريقا آخر بالبر الشرقي . وكانت خطة سامون هي ان يجعل جيش المماليك يتوغل داخل مملكته ويلاقيه على ابواب دنقله ، وتنفيذا لهذه الخطة امر نائبه على منطقة الدر ويدعى جريس ، ولقبه الرسمي صاحب الجبل ، باخلاء البلاد والتقهقر جنوبا . وحينما وصل ايدمر بجيشه على مشارف دنقلة خرج له سامون بجيشه والتحم معه في معركة انتهت بهزيمة سامون وفراره جنوبا فتتبعه ايدمر الى مسافة خمسة عشر يوما دون ان يلحق به ووقع جريس في الاسر . وبرجوع ايدمر لدنقلا، تم تنصيب ابن اخت سامون ملكا وافرج عن جريس وثبت في منصبه لأنه اعلن الولاء ؛ ورأى قلاوون ان يبقى ايدمر ليكون ضابطا سياسيا مقيما كمندوب سامي للسلطان ، وبعث بسعد الدين ابن اخت داود وكان بالقاهرة آنذاك ليكون مستشارا لايدمر ورجع باقي الجيش لمصر .

ظهور سامون مرة اخرى

ويبدو ان سامون كان على علم بما حدث في مخبئه ، فما ان غادر الجيش المملوكي دنقلا حتى ظهر مرة اخرى واستعد لاسترجاع ملكه ، ويظهر ان سامون لم يكن وحيدا في مقاومته للاحتلال المملوكي بل له اتباع وانصار في هذا الامر من افراد الشعب النوبي ، حتى ان ملك النوبة الجديد وجريس معه فرا الى القاهرة ولو ان المصادر لا تذكر ذلك فان ايدمر ايضا غادر دنقلا . وجهزت حملة كبيرة بلغت اربعين الفا ومعها عدد لم يجهز من قبل من المراكب على النيل وسارت من القاهرة سنة ١٢٨٩ واشترك فيها ايدمر وصحبها ملك النوبة وجريس صاحب الجبل ، وعندما مات الملك في الطريق عين ابن اخت الملك داود بدلا عنه ، وقاد ايدمر الفريق الذي سار شرقي النيل كما فعل في المرة السابقة ، والظاهر ان انباء هذه الحملة الكبيرة

وما جرته الحملات السابقة من خراب للبلاد هبطت بحماس من كانوا ملتفين حول سامون وتخلوا عنه ولذلك فر جنوبا واختبأ في جزيرة على النيل ثم جنوبا الى منطقة الابواب ، وطلب الاسقف والقساوسة الامان من ايدمر واحتل الجيش دنقلة واحتفل بعيد النصر في دنقلة ونصبوا الملك الجديد بالطريقة التقليدية ورجع الجيش لمصر بعد ان بقيت فرقة منه في دنقلة .

ظهور سمامون

وكما فعل قبلا فما ان علم برجوع الجيش لمصر حتى ظهر ووصل دنقلة متخفيا واستمال اليه بعض من خذلوه قبلا وقبض على الامير المملوكي المقيم بدنقلة وارسله ورجاله الى القاهرة وقتل الملك الجديد وجريس صاحب الجبل وكتب الى السلطان يطلب منه العفو والصفح ومهد لذلك بأنه لم يصب الامير المملوكي وجماعته بأذى وارسل مع خطابه بعض الهدايا من رقيق وغيره وتعهد بدفع الالتزامات . وقبل السلطان تأكيدات سامون ويبدو انه ادرك قوته وسيطرته على البلاد ولا يود تجهيز حملة اخرى لانه كان آنذاك يستعد لازالة اخر معقل للصليبيين في عكا . والى الآن وضح لنا مكر سامون ودهاؤه ولا غرابة في ان ينقض العهد ويستعيد حريته عندما ترامى الى اسماعه موت قلاوون واظهر استقلاله بأن منع ارسال البقط والجزية سنة ١٢٩١ م ولكنه آثر الدبلوماسية على التمرد الواضح اذ بعث للسلطان خليل الذي خلف والده قلاوون يعتذر عن تأخير البقط الى السنة التالية لأن البلاد اصابها الخراب من الغزوات المتتالية عليها وعندما اصر خليل على ابقاء الالتزامات وتوعد سامون وعد الاخير بارسال البقط حالا واتفق على ان تكون والدة سامون وبقية اهله رهائن في القاهرة بدار الضيافة . غير انه لم يمض وقت طويل اذ ارسل سامون اخاه جريسا للقاهرة يستعطف السلطان بارسال والدته له بدعوى « ان ملوك

النوبة ما يدبرهم غير النساء » كما شكا من ملك الابواب ولكي يجعل طلباته مقبولة لدى السلطان بعث بهدايا من حاصلات بلاده .

حملة جديدة لبلاد النوبة

ضاق السلطان خليل ذرعا بمراوغة سمامون وجهز حملة قادها عز الدين الافرم لعزل سمامون والقبض على امير نوبي يدعى آني لأنه خرج على السلطان ، وتوغلت هذه الحملة مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما جنوبي دنقلة لا نعرف الى اي اتجاه ولكنها وراء آني الثائر الذي التجأ اخيرا كما تقول المصادر الى بلاد الانج ، ويظن انه هرب الى جبل الحرازة شمال كردفان . ورجع الافرم الى دنقلا بغنائم واسلاب واسر عددا كبيرا من السكان . اما سمامون فلم يرد له ذكر لأنه هرب الى مكان مجهول ومات او قتل . وكالعادة بعث السلطان خليل بأمير نوبي يسمى بدمة للامير الافرم حيث تمت مراسيم تنصيبه ملكا في دنقلة وعين جريس نائباً للملك وربما كان اخا لسمامون واقسم الاثنان يمين الولاء والطاعة للسلطان وحلف رعاياهما بالولاء للملك الجديد على اساس ولائه للسلطان « لولا مولانا السلطان ما اطعناك ومتى تغيرت ازلناك ونحن نرضى ان يقيم مولانا السلطان ملكا فلاحا او جبليا فان بلاد النوبة ما لها ملك الا مولانا السلطان ونحن رعيته » . وهذه الحملات المتكررة وخاصة الاخيرة زادت في اضطراب الاحوال في بلاد النوبة وهروب بعضهم من ديارهم اذ كان من اول مطالب بدمة من قائد السلطان السماح للهاربين بالرجوع لبلادهم لاصلاح دورهم. وملك الابواب اتباعاً لسياسته السابقة لم يترك مجالا لسوء تفاهم بينه وبين المماليك اذ بعث برسالة لقائد السلطان يجدد فيه الولاء والطاعة ويخبره بمطاردته للامير الثائر آني فاذا ما تم الاستقرار فان جميع البلاد ستخضع للسلطان . .

وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون وكان لا يزال طفلا قدم ملك النوبة اماي للقاهرة وطلب مساعدة الدولة المملوكية له ضد اعدائه ، ولم يعرف على وجه التحديد من هم اعداؤه . وجهزت الحملة بقيادة والي قوص واصطحبها عدد من العربان وتوغلت اكثر من اي حملة اخرى سبقتها اذ غابت عن مصر تسعة عشر شهراً خلال سنتي ١٣٠٦ ــ ١٣٠٧ م . ويبدو ان هذه الحملة ما جهزت لمساعدة متملك دنقلا خاصة اذ انها حاولت ان تقضي على كل عوامل الشغب في الاقاليم السودانية وكانت اولى مهامها هي تأديب العربان الذين قطعوا الطريق ببرية عيذاب ، فتوغل الجيش في الصحراء بعد اوامر مشددة من الابواب السلطانية للاستهانة بالأخطار ووصلوا عيذاب ومنها واصلوا سيرهم الى سواكن ولاقوا عنتاً في الطريق بسبب قلة المياه ، ومن سواكن اقتفى الجيش العربان وكانوا ينهبون ما يجدونه من اغنام وماشية لغذائهم ، ووصلوا الى جبل صغير يقال له ازبينات يقع على شاطىء نهر اتبرة وتابعوا مجرى النهر ثم انتهوا الى جبل كسلان وجبل السوس وهذا حد بلاد التاكه من الحبشة ، ووصفوا ارضا كثيرة الاشجار ولعلها دلتا القاش وقاتلوا قوما يدعون هلنكه ولعلها تحريف للحلانقة . ثم رجعوا الى نهر اتبره الى الجبل الذي سموه اربينات ودخلوا بلاد الابواب وعندما استدعوا ملكها خاف من دخول المعسكر وارسل لهم مائتي رأس من البقر والاغنام وكمية من الذرة ولم يكتف الجند بذلك بل نهبوا ما صادفوه في طريقهم من الذرة ثم توجهوا لأرض دنقلة خلال ارض كثيرة الاشجار والافيلة والقرود والنسانيس والوحش الذي يسمى المرغيف (المرفعين وهو الذئب) ووجدوا في دنقلا ملكها عبد الله برشنبو وزودهم هذا ، وبعدها توجهوا الى اسوان ثم قوص . قد نستطيع ان نعين الاماكن التي مروا بها في هذه الحملة وان نصحح التحريف في الاسماء ولكن الغابة

الكثيفة التي تسكن فيها القيلة والوحوش بين الابـــواب ودنقلة قد لا نهتدي اليها .

اول ملك نوبي مسلم

مات اماي قتيلا حسب بعض الروايات سنة (١٢١١) ولعل اغتياله كان نتيجة حماس بعض المتحمسين لدينهم وقوميتهـــم لما رأوا خضوعه للمماليك ، وخلفه على العرش اخوه كرنبس واظهارا لولائه للمماليك سافر القاهرة حاملا الجزية والبقط . وعندما تثبتت اقدامه راودته نفسه بالتخلص من التبعية المملوكية فامتنع عن اداء الجزية سنة ١٣١٥ م وصادف هذا ان بلغ السلطان سن الرشد وارسل على التو حملة الى بلاد النوبة لم تنجح في القبض على كرنبس لأنه لجأ لبلاد الابواب وكالعادة لجأ المماليك الى اختيار ملك جديد من الامراء النوبيين الذين كانوا في القاهرة آنذاك ومنهـم عبد الله برشمبو الذي اسلم وحسن اسلامه في سنة ١٣١٦ م . وعندما علم كنز الدولة وهو ابن اخت كرنبس الهارب طالب بان يجلس علـى عرش المملكة حسب تقاليد النوبيين بان ينتقل الملك الى ابن الأخت ، وايده خاله كرنبس في ذلك بان وصى عليه لاسيما وان نية السلطان اتجهت الى تعيين ملك مسلم فكنز الدولة يستوي مع برشمبو في الاسلام ويزيد عليه بانه ابن اخت الملك . غير ان السلطان اصر على تثبيت برشمبو واحتجز كنز الدولة ومنعه من العودة لبلاد النوبة . اما كرنبس فيروي ان ملك الابواب قبض عليه وسلمه لجنود السلطان . وهكذا تربع عرش مقـرة المسيحية اول ملك مسلم .

كنز الدولة

لأمر ما لم يستقر عبد الله برشمبو في عرشه ولم يعترف به النوبيون

لانه حسب رواية النويري غـير قواعد البلاد وتكبر على رعيته وعاملهم بغلظة ، غير ان نهايته كانت على يد كنز الدولة الذي افرج عنه من الاعتقال في القاهرة ولم يكن راضيا منذ البداية على تعيين برشمبو لانـه يرى في نفسه اللياقة من حيث انه سلالة امراء من المسلمين وزاد على ذلك انه ابن اخت الملك ووصل الى الدر سنة ١٣١٧ م والتف حوله النوبيون هنـاك ونادوا به ملكا عليهم ، ويبدو ان العرب في المنطقة ناصروه ايضا وتقدم جنوبا وحارب برشمبو وهزمه واعتلى العرش ولكنه لم يضع تاج الملك على رأسه متظاهرا باكرامه وتعظيمه لاخواله ، ولكن الراجح ان التاج يحمل علامة الصليب ولا يليق به وهو مسلم ان يحمله على رأسـه . وما كان للسلطان الناصر ان يعترف بهذا الملك الذي وصل اليه كنز الدولة بدون تأييد الدولة المملوكية وكذلك اطلق سراح ابرام احد اخوة كرنبس وطلب اليه ان يقبض على ابن اخته بالحيلة ووعده باطلاق سراح اخيه واعادته لعرشه . وفي دنقلا خرج كنز الدولة طائعا ويروي انه سلم اليه الملك وسارا معا شمالا لحث النوبيين على طاعة ابرام . غير ان الخال قبض على ابن اخته وارسله مقيداً الى القاهرة ، وقبل ان يغادر بلاد النوبة في طريقه للقاهرة مات ابرام والتف النوبيون مرة اخرى حول كنز الدولة ولبس هذه المرة التاج ومارس حقوقه كملك سنة ١٣١٧ م. وبعث بحملة جديدة سنة ١٣٢٣م. تمكنت من تنصيب كرنبس ملكا بعد ان هرب كنز الدولة من دنقلة . ولكن العرش كان على اسس واهية حيث استرجعه كنز الدولة بمجـرد مغادرة الحملة لدنقلة .

يتضح من هذه الاحداث التي سردناها منذ ان بدأت علاقة المماليك ببلاد النوبة ان استقلال دولة المقرة النوبية بدأ يضمحل ولم يكتف المماليك بعلاقة دفع البقط كما اكتفى سلفهم من الدول الاسلامية في مصر بل فرضوا جزية وكان لنفوذهم العامل الفعال في تنصيب الملـوك وكان النوبيون يحاولون التملص من سيطرة المماليك كلما سنحت لهم فرصة حتى اولئك

الذين تربعوا على العرش بنفوذ وحماية المماليك . ويبدو ان الدولة المملوكية ما كانت ترضى عن استقرار العرب في بلاد النوبة لان ذلك ظهر في العهود التي اخذها ملوك النوبة على انفسهم ولذلك كان اعداؤهم لبني الكنز وتفضيل سلالة الملوك الاصليين عليهم . ومع ذلك تسرب العرب واستقروا في بلاد النوبة اما من تلقاء انفسهم او البقاء في البلاد عقب كل حملة مملوكية جردت على بلاد النوبة . وكانوا عونا وعضدا لدولة بني كنز في نضالها ضد المماليك واستمر دخول النوبيين في الاسلام كلما زاد اختلاطهم بالعرب وكلما زار النوبيون الذين يعملون في مصر اوطانهم ، وتقلص نفوذ المسيحية لان الحصار احكم على منافذها على البحر الاحمر وفي حدود مصر وضعفت علاقتهم بمصادر تعاليمهم الدينية في مصر ، بل ان القساوسة في بلاد النوبة آثروا السلامة وخذلوا ملوكهم الثائرين على المماليك في بعض الاحيان فلا غرابة اذا ما زالت المسيحية منها الا القليل جدا في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي وبعدها زالت تماما .

زوال الملك الموحد

للنوبة تقاليدهم القديمة العريقة في الملوكية ، وقد يتنافر أفراد البيت المالك فيما بينهم من وقت لآخر ، غير ان الملك ما زال موحداً حتى اذا ما اعتلى بنو كنز العرش وعمرت بلاد النوبة بكثير من القبائل العربية ثارت العصبيات القبلية وثار الزعماء على الملك وانشأوا امارات صغيرة مستقلة وصارت الوحدة القبلية تطغي على رابطة الدين والاقليم ، ولم نعرف على وجه التحديد متى زال الحكم الموحد في بلاد النوبة ولكن عند تغلب الفونج على مملكة علوة في الجنوب في بداية القرن السادس عشر لم يجدوا فيما كان يعرف قبلا بمملكة المقرة اية سلطة مركزية تبسط نفوذها على الاقليم بكامله بل وجدوها وحدات قبلية او اقليمية صغيرة وهذا من تأثير القبائل العربية.

ويبدو ان بني كنز نقلوا مركز نشاطهم الى النوبة السفلى لان المصادر تروي سلسلة من حوادث المعارك بينهم وبين المماليك في اسوان وفي النوبة السفلى . وفي اوائل القرن الخامس عشر نسمع عن نشاط قامت به قبيلة هوارة ، وكانت تسكن صعيد مصر . وهاجمت اسوان حيث كان بنو كنز مسيطرين عليها وهزموهم وتقدمت جنوبا في ارض النوبة . وبتقلص الحكم المركزي في جهات دنقلة وبضعف سيطرة المماليك على اسوان سنحت الفرصة لقبائل عربية ان تتسرب الى بلاد السودان امثال جهينة وفزارة وتعمقوا في السودان الاوسط وبعضهم الى الغرب .

مملكة علوة

عندما زالت مملكة مروى على يد عيزانا ملك اكسوم تدخل في حقبة غامضة لا تتبين فيها ما حل بأشلاء هذه المملكة ، ولعل مروى كانت تنحدر وتتداعى عندما خربتها جيوش اكسوم وفرقت شملها ، ويحتمل ان البعض من امرائها والطبقة الحاكمة فروا غربا نحو كردفان ودارفور وان بعضهم ذهب الى ما وراء دارفور غربا حيث تشعر قبيلة اليوروبا في منطقة نيجريا الغربية ان اسلافهم تحدروا من مروى ويقوم بعضهم ببحوث في هذا الصدد ، ولكن افراد الشعب لا بد وانهم احتملوا هذه الهزة وبدأوا يزاولون حياتهم من جديد ويقفز بنا الزمن قفزته حتى اذا بدأنا نسمع عن نشاط التبشير المسيحي في بلاد السودان عرفنا ان هناك مملكة تدعى علوة وعاصمتها سوبا الشهيرة جنوبي الخرطوم بقليل على الضفة الشرقية للنيل الازرق ولها منطقة شمال الخرطوم تعرف بالابواب ، والظاهر انها كانت اكبر الاقاليم التابعة لمملكة علوة ولا بد وانهم ورثوا حضارة مروى المتداعية .

وعندما دخلت الجيوش الاسلامية مصر وبدأت المصادر العربية تصف

لنا طبيعة وحوادث العلاقات بين الدولة النوبية الشمالية المعروفة بمقرة ، تذكر لنا من حين لآخر علوة وخاصة اقليمها الشمالي المعروف بالأبواب ، وفي كل الحالات التي تذكر علوة او جزءها الشمالي يتبين لنا انهم يودون المصالحة والمسالمة ولا يريدون الاصطدام بقوة الدولة الاسلامية في مصر . ويصف لنا المقريزي نقلا عن ابن سليم الاسواني مملكة علوة بأن سوبا عاصمتهم تقع شرق الجزيرة الكبرى بين البحرين وفيها « ابنية حسان ودور واسعة وكنائس كثيرة الذهب وبساتين ولها رباط فيه جماعة من المسلمين ومتملك علو اكثر مالا من متملك المقرة واعظم جيشا وعنده من الخيل ما ليس عند المقري وبلده أخصب واوسع والنخل والكرم عندهم يسير واكثر حبوبهم الذرة البيضاء التي مثل الارز منها خبزهم ومزرهم واللحم عندهم كثير لكثرة المواشي والمروج الواسعة حتى انه لا يوصل الى الجبل (الصحراء) الا في ايام وعندهم خيل عتاق وجمال صهب عراب ودينهم النصرانية يعاقبة واساقفتهم من قبل صاحب الاسكندرية كالنوبة وكتبهم بالرومية (اليونانية) يفسرونها بلسانهم وهم اقل فهما من النوبة وملكهم يسترق من شاء من رعيته بجرم وبغير جرم ولا ينكرون ذلك عليه يسجدون له ولا يعصون امره على المكروه الواقع بهم وينادون الملك يعيس فليكن امره وهو يتوج بالذهب والذهب كثير في بلده » . ووصف ابن سليم ان بعضهم يعترف بوحدانية الله « ويتقربون اليه بالشمس والقمر والكواكب ، ومنهم من لا يعرف الخالق ويعبد الشمس والنار ، ومنهم من يعبد كل ما استحسنه من شجرة او بهيمة » .

وصف لحضارة علوة

يتضح من وصف ابن سليم بامكانيات علوة التي تتفوق على المقرة وهذا يؤيده الواقع الجغرافي الذي لا يتغير كثيرا ، فاتساع رقعة علوه

وهطول الامطار فيها وتوفر المراعي والزراعة المطرية يجعلها من الناحية الزراعية والرعوية مجالا حيويا لحشود القبائل العربية المتدفقة من الشمال ، وطبيعة اراضي علوة تناسبهم اكثر من رقعة دنقلا الضيقة ومسيحيتهم حتى عند الذين اعتنقوها من السكان لم تكن بدرجة من التعصب تجعلهم يقاومون هذا الزحف العربي المتدفق وبعضهم لا يدين بالمسيحية او يمزج بينها وبين الوثنية ، وفوق كل ذلك فارض الله واسعة لا يشعرون بضيق او منافسة بالوافدين عليهم ولاسيما اعراب البادية ، لانهم يحتلون اماكن خالية او شبه خالية من السكان اذ المعروف عن الحضارات التي سبقت دخول العرب انها مستقرة لا بدوية متنقلة . وهذه الصورة التي رسمها لنا ابن سليم قد تتعدل نوعا ما بالحفريات التي سيقوم بها الاثريون في هذه المنطقة .

تدهور علوة

والظاهر ان انتشار القبائل العربية في السودان الاوسط وسقوط المملكة المسيحية وقيام دولة اسلامية في مقرة سنة ١٣٢٣ ميلادية قطع الاتصال بين الكنيسة المسيحية في علوة وبين مصدر ارشادها في مصر ، وكان لأثر ذلك ان اهملت الطقوس الدينية وهجرت الكنائس وتداعت وخاصة اذا علمنا ان معظمها بني من الطين ، ويحتمل ان العرب عندما اشتد ساعدهم في تلك الاقاليم قاموا باعتداءات على السكان وسبوهم ، ولو انه لم يصلنا نص صريح ، الا انه قياسا على ما قامت به بعض القبائل العربية من اعتداءات في جهات افريقية اخرى وعلى شعب اسلامي افريقي لا يستبعد مثل هذه الاعتداءات اذ وردت شكوى من سلطان برنو الى السلطان الظاهر ابي سعيد برقوق سنة ١٣٩٢ ضد بعض الاعراب قال فيها : « فان الاعراب الذين يسمون جذاما وغيرهم قد سبوا احرارنا من النساء

والصبيان وضعفاء الرجال وقرابتنا وغيرهم من المسلمين... وهؤلاء الاعراب قد افسدوا ارضنا كلها في بلد برنو كافة حتى الآن وسبوا احرارنا وقرابتنا من المسلمين ويبيعونهم لجلاب مصر والشام وغيرهم ويختدمون ببعضهم ..»

وصف لعلوة في آخر ايامها

وعندما تقارن الصورة التي رسمها لنا ابن سليم في أوائل العهد الفاطمي بمصر بصورة اخرى رسمها فرنسيسكو الفاريز البرتغالي في أوائل القرن السادس عشر يتضح لنا ما آلت اليه حالة الكنيسة المسيحية في علوة يقول الفاريز: «ان اولئك النوبيين يجهلون دينهم فلا هم بالمسيحيين ولا هم بالمسلمين او اليهود، ويقال أنهم كانوا على النصرانية، غير انهم فقدوا دينهم ولم تبق لهم عقيدة ويأملون ان يكونوا مسيحيين » وعندما وصلوا هذه الحالة من الجهل بتعاليم دينهم ولم يتمكنوا من الحصول على قساوسة من الاسكندرية بعثوا الى نجاشي الحبشة سنة ١٥٢٢ م ليرسل لهم قساوسة يرشدونهم الى دينهم ، ولم يتمكن النجاش من تلبية هذا الطلب حين خاطبهم قائلا : « انه يعتمد على البطريرك في بلاد المسلمين في ارسال « ابونا » فكيف يعطيهم من يتفضل بهم عليه غيره » . واضاف الفاريز رواية سمعها من بعض الاحباش انه منذ وفاة اسقف علوة من زمن بعيد لم يجدوا من يخلفه بسبب الحروب من القبائل العربية في النوبة الشمالية وبذلك تركت كنائسهم بدون رعاية ونسوا نتيجة لذلك كل شيء عن المسيحية ، وذكر حنا السوري الذي زار علوة في اخريات ايامها هذه ان بها ١٥٠ كنيسة قديمة تحمل جدرانها صور السيد المسيح والعذراء فاذا كانت الارقام صحيحة فانه يظهر لنا بجلاء عدد ما تهدم منها ، اذ يذكر ابو صالح الارمني حوالي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي انها كانت نحو ٤٠٠ كنيسة .